الخلود

قصيدة للشاعر لامارتين

[الفونس دي لامرتين (١٨٦٩ — ١٧٩٠) شاعر افرنسي ، رقيق العاطفة ، دقيق الشعور ، تغلغل الى سويداء الفؤاد فبدى مكنوناته ، وتسلل الى اعماق النفس فاظهر خوالجها ، وقد نظم هذه القصيدة ، وقدمها الى فتاة مريضة ، يائسة من الحياة ، قانطة من رحمته تعالى ، لان آمالها بالخلود كانت محجوبة بغمامة احزانها الكثيفة

وكان هو وقتئذٍ غريقاً في لجج من دياجير النفس وآلامها ، ولكن الحزن والشك واليأس ، لم تكن لتأتي على مرونة قلبه ، الذي كان يستسلم للشك في بعض الاحيان ، لكنهُ لا يلبث ان يعاودهُ معتقدهُ ، فيسمو بآماله الى الخالق عزَّ وجلَّ ، لان قبس التقوى الذي اشعلتهُ في فؤاده امُّهُ الورعة ، وظلت تُضرمهُ بانفاسها ايام الحداثة ، كان يخبو حيناً من تأثير عواصف الدهر ، ويكاد يُطفأ تحت وابل الدموع التي تستدرها آلام الحياة ، ثم يعود الى الاشتعال حالما يخلو الشاعر الى نفسه ، لان الباري يتجلى لهُ عند ما يزول كل حائل بينهُ وبين افكاره

وهذا ما كان يحدو بهِ فجأةً الى نبذ الحزن السحيق ، والانقياد والتسليم لما يأتي بهِ القدر ، لان الايمان هو الامل ، والامل اكبر معزٍّ ، واعظم مخفف للآلام البشرية]

ترجمة القصيدة

كل ما في الوجود يسير بخطى واسعة الى العدم ، فالشمس لا تكاد تُشرق حتى يسقيها الزوال ، فتُلقي في فترتها القصيرة على وجوهنا الذابلة اشعتها الشاحبة المضطربة ، فيتلقفها الظلام بصفوفهِ القاتمة المتدفقة من كل صَوْب ، ويبتلعها في دياجيره السوداء الحالكة ، فيلفظ النهار انفاسه ، دون ان يترك من مروره اثراً ، ويضمحلُّ كل موجود على وجه البسيطة ويزول ، كأن لم يكن ثم انيس ولا سامر

ولو وعى الانسان حقيقة حاله ، وتدبَّر ما يقع تحت انظاره ، لاعتراهُ الهول والجزع ، وتقهقر مذعوراً عن حافة الهاوية الفاغرة فاها لابتلاعه ، اذ من ذا الذي لا يتصور تفاهة هذه الحياة وغرورها ، عند ما يطرق أُذُنَيْه نشيدُ الاموات يردِّد صداهُ

الفضاء ؟ او زفرات عاشقة تودّع اماني في شخص حبيبها انيت ؟ او انم حنون تدفن آمالها ومُنى نفسها في صدر فلذة كبدها ارواحن ؟ او رنين ناقوس الحزن ينوح بولهٍ مُنذراً الانام برحيل نفيس منهم ، من دار التعب والشقاء الى دار الراحة والهناء ؟

سلاماً أيها الموت ! ما انت الا مُنفذٌ سماوي ، تمسح بيدك عنا فتحرثنا من آلامنا واسقامنا ، انك لا تبدو لي بمظهر مخيف مُفزع كما يتصورك البعض ، فذراعك ليست مسلحة بنصل مخرّب لا يُبقي ولا يذر ، وعينك ليست عين غدر ولا خيانة ، ووجهك لا يحمل بين اساريره سمات الصرامة والقساوة ، فانت رسول سُلوي تخلّص وتُنقذ ؟ لا مُفنٍ تلاشي وتُعدم ، أرسلك اله رؤوف رحيم ، حاملاً مشعل النجاة ، لتخفف آلام الانسانية ، وتُنقذ بني البشر

وعند ما أعيننا التعيسة تُغشاق عن نور هذه الحياة ، تُفيض انت عليها نوراً ، اشد سطوعاً ، واكثر تلألؤاً ، فالامَلُ بقربك اذا ارتكزَ على دعامة الايمان ، يفتح لي دنيا ، اجل من هذه الدنيا واسعد

فتعالَ اليَّ ، تعالَ لتنقذني من اصفادي الجسمية ، تعالَ لتخرجني من سجني الترابي . هَلُمَّ اليَّ ، وارفعني الى من كل شيء امامهُ هباء وعفاء . . أعِرْني جناحيك لاطير بهما الى الكائن الأزلي ، الذي هو ملجأي واعتمادي ، وغاية املي في دنياي وآخرتي

من ذا الذي ابعدني عنهُ ؟ ومَنْ انا ؟ وماذا سيحلُّ بي ؟ . . اسئلة تُردّدُها نفسي الحائرة الوَجِلة ، دون ان تجد لها جواباً ، فسأموت ولا اعرف الحياة . . وانتَ ايها الروح ، ايها الضيف الغريب الحالُّ على غير معرفة ، لقد طالما سألتك فلم تُسعِرْ جواباً ، فهلا رغبت عن صمتك ، واطلعتني على مكنونات سرك . . أُناشدك الله ان تخبرني عن المياه التي اتيت منها قبل ان تحلَّ فيَّ ، وعن القوة التي قذفتْ بك الى هذه الكرة السريعة العطب ، وعن اليد التي قيدتك في سجنك الصلصالي . وعن الرابطة الخفية العجيبة التي تربطك بالجسد الفاني

اي يوم ستتزح فيه عن هذه المادة ؟ ولاي مقرٍّ سماويٍّ ستغادر الارض ؟ وهل تعيش بعد القبر في النسيان الذي كنت فيه ؟ ام سترجع الى احضان الله مُبْدِئك ومُعيدك ، متخلصاً من قيودك الزائلة ، متمتعاً بحقوقك الابدية التي حباك الخالق بها كرماً منهُ ومِنّة ؟

أجل، هذا هو املي الوحيد ايتها الروح، يا من جعلك الباري نصف حياتي : النصف الباقي الخالد ، فبهذا الامل تشتد عزيمتي ، وتتقوّى نفسي ، وتسرُّ ايّما سرور ، عند ما تبصر على محياي الوسيم، اضمحلال الوان الربيع الزاهية ، وبه اتقبل بفرح لا يوصف ، الموتَ الذي طفق يدبُّ في غصن حياتي النضّ ليهصره قبل أوانه

أمل ضائع ، ورجاء غير محقق ، يقول اتباع ابيقوروس ، فالحياة عَشَم والذائذ ، وما وراء القبر غير العدم ، فلا ثواب ولا عقاب ، ومن التمس غير ذلك فقد أضاع دنياهُ ، دون ان يجني من زهده غير خيبة الامل ، فتأمل ايها المغرور فيما حولك ، فكل شيء لهُ بداية ونهاية ، كل شيء يولد ليموت ويتقرض ، فالزهرة تذبل في المروج اذا ما دار الفلك دورته والارز يهوي في الغابات تحت عبء السنين ، والانهار تجفُّ في مجراها من فعل الايام ، والسماء تنسحب من مرّ الغداة ، وكرّ العشي ، وكوكب النهار الذي اخفق الزمنُ عنا مولدهُ يسير الى محاقهِ ، وسيأتي يوم يتطلع فيهِ البشر الى السماء بخوف وذعر فيرونها خلواً منهُ

أفلا تجد في كل هذا ما ينقض آمالك ، ويهدُّ امانيك ؟ فالعصور في الطبيعة تتكدّس تكدُّس التراب فوق التراب ، والزمن يطوي في ارماسهِ كل حيّ وجماد ، والانسان ، الانسان وحده في قبر جدثهِ ، وعميق حفرتهِ ، يحلم بالبعث ، ويأمل في الخلود ، بعد ما طوّحت بهِ اعاصير الموت ، في لجج الفناء والاضمحلال

لكم تمطيقكم يامن تدّعون العلم والمعرفة ، ولي منطقي ، فاذا كنتم ترمونني بالخطإ ، فدعوني اسعد في خطائي ؛ فاني احب ، والحب هو الامل ، بل هو الخلود ؛ فاذا استعنّا بعقلنا في حل مُشكلة البقاء ، فالعقل يَهِنُ ويعجز ، وحيث يعي الادراك ، يحيي الشعور غريزتنا الطبيعة ، تبدي لنا باجلى المظاهر ، ما ينتظر الانسان بعد الموت من البعث والخلود فلو تبدّت لي اعظم مخيّلة تصورتها مخيّلة امرئ ، فابصرت في السهول السماوية ، الكواكب تحيد عن سُبُلها ، وتتصادم بعضها ببعض، وتتناثر اجزاؤها ،وتتبعثر في الفضاء غير المحدود ، وسمعت باذني انين الارض ، وحشرجة زفيرها ، ورأيتها سائرة على غير هدى ، في ظلام اللانهاية ، تبكي بنيها الذين لم يبق منهم عين ولا اثر . لو تمثّل لي خراب العوالم باجمعها ، ودمار الكواكب باسرها ، وتكدّست الظلمات فوق الظلمات ، والاشلاء فوق الاشلاء ، وبدا الموت مهيمناً ، والفناء مسيطراً ، ولبثت وحيداً بين هذه المروعات لما تزعزع ايماني بالكائن الرحيم قيد شعرة ، بل لظللت جاثماً فوق هذه الاطلال ،

منتظراً بملء الثقة بزوغ فجر الابدية ، الذي لا يعتريه افول ، ولا يصيبه زوال

أتتذكرين عندما كانت تجمعنا تلك الامكنة السعيدة ، حيث ولد من نظرة واحدة ، حبنا الازلي ؟ فكنا نُسَرُّ تارة فوق ذرى الصخور الشماء ، وتارة على شواطئ البحيرات الهادئة ، فنسير معاً ، بعيدين عن العالم ، محولين على اجنحة السعادة والهناء ، نغوص بانظارنا في دياجير الحلكات ، التي اختفت عن ابصارنا مرآى الطبيعة الآخذة بالانتباب ولكن جوقة كواكب الليل ، لا تعدم ان تبدو سائرة بسكون واتضاع ، فتنير السهول والاودية ، بنور كامد لا وهج فيه ، لكنهُ يملأ القلب روعة وجمالا . . بنور اشبه بضوء المصباح ، الذي يشعُّ في معابدنا المقدسة ، حالما يسُوّد الظلام ، فيأخذ على القلوب مشاعرها ، ويملأ الافئدة ورعاً وخشوعاً

وكنت في الانخطاف الروحي الذي يعتريك ، تتقلين طرفي من السماء الى الارض ، ومن الارض الى السماء ، وتجثين صامتة بتدلُّل : ايها الاله الحق ، انا لتتأمل الطبيعة ، فترى ذاتك الالهية متجلية في كل دقائقها ، فالطبيعة هيكلك ومذبحك ، واذا رُمنا معرفة كمالك الالهي ، فما علينا الاَّ ان نتطلع فيما حولنا ، فالدنيا شعاع من محاسنك ، والنهار نظرة من نظراتك ، والجمان ابتسامة من ابتساماتك ، فالقلب يعبدك في كل ما تراهُ العين ، والنفس تتنسَّمُك في كل ما يبدو ويطن ، والعواطف تنجذب اليك منسحقة في حبك ، الذي يرفعها من مستوى الثرى الى مناط الثريا ، والروح الخالدة توَّاقة اليك ، لترتوي من ينبوعها السرمدي

وكان قلبانا يضمان تهداتهما الصاعدة على اجنحة الشوق الى الكائن الاعظم ، فجثوتُ بجانبك ، لتعبدهُ في صنع يديه ، رافعاً واياك الى مقامه السامي ، مع الفجر والشفق ، والغروب والغسق . فروض العبادة ، الصادرة عن جوانح ملأى بالتقوى والخشوع ، وعيوننا الساجية تتطلع الى الارض دار منفانا ، والى السماء مقرُّنا ومثوانا

فيا حبذا ، لو استجاب الله في هذه البرهة ، دُعاء نفسينا الشاردتين ، اللتين تريدان تحطيم قيودها والعودة اليه ، واصطفانا معاً ، اذن لطارت روحانا الى مصدرها الازلي ، مجتازتين طبقات الاثير على جناحَي الحب ، وصعدتا الى بارئهما ، كما يصعد من الافق ، شعاع النهار عند انبثاق الفجر ، وامتزجتا باصلهما الابدي ، الذي هو مصدر كل حبٍّ ، لتجداه ، وتسبحا بحمده ، في أزَلِهِ الى أزَله

طنطا نصيف جورجي نيقولاوس